

مجلة أنثروبولوجية (الأوبان) المجلد 20 العدد 02 2024/06/05

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الأسس الحضارية والقيم الدينية الصوفية

عند الأمير عبد القادر الجزائري.

**The Cultural Foundations and Sufi Religious Values
of Prince Abdelkader Algeria**

عبد المالك ميساء^{*1}

¹جامعة تلمسان - الجزائر-

Mayssa.anthropo08@gmail.com

الدكتور بلبشير محمد²

²جامعة تلمسان - الجزائر-

Mohamed.belbachir1@univ-tlemcen.dz

تاريخ القبول: 2024/ 04/18

تاريخ الاستلام: 2024/ 03/17

الملخص :

يعد الأمير عبد القادر أحد العناوين الكبرى والرموز التاريخية التي آمنت بالفعل الحضاري المنطلق من كونية قيمية تؤمن بالذات ولا تقصي الآخر. تجلّى ذلك على مستوى الوعي قبل السعي والتصور قبل التصرف دلت على ذلك آثاره الفكرية ومسلكياته الميدانية في بعدها الإنساني وإبداعه الوجودي ، والتي حاولنا الكشف عنها وإبراز خصاله الحميدة وأخلاقه الرحيمة المتسامحة مع الغير، وهذا ما تنادي به عقيدته الإسلامية الخالصة ، لهذا توصلنا إلى أنّ التجربة الأميرية الصوفية استثمرت رؤيتها الحضارية لخلق جسور لقاء بالآخر ، أين جسد الأمير عبد القادر قيمه الدينية وسلوكياته البرزخية الأخلاقية من مستوى الخطاب إلى الممارسة ، كما أنّ الأمير بنزعتة الإنسانية المقدسة انتقل من المحلي إلى العالمي في تحقيق العدالة بإنصاف ورفع المظالم عن كل أسير أو ضعيف محتاج وهذا تجلّى بعين البيان أثناء إمارته ومحاربه للإستعمار الفرنسي

*المؤلف المرسل: عبد المالك ميساء، الايميل: mayssa.anthropo08@gmail.com

في الإصلاح بين القبائل لتوحيدها وفض النزاع والإبقاء بينها . نجح الأمير بعرفانية سامية في تصدي لفتنة دمشق الطائفية والمذهبية وحماية المسيحيين ، فلم يزد ذلك إلا احتراما وتقديرا كونيا .
الكلمات المفتاحية : الأمير عبد القادر - الحضارة - القيم - الوعي - الدين

Abstract :

Prince Abdul Kader is one of the great titles and historical symbols that have secured the civilizational act based on a valuable universe that believes in itself and does not investigate the other. This was reflected in the level of awareness before the pursuit and perception before the disposition of his intellectual effects and his field behaviors in his human dimension and existential creativity, which we tried to uncover and highlight his good qualities and compassionate and tolerant morals. This is what his pure Islamic faith advocates. This is why we have concluded that the Sufi Amiri experience invested its cultural vision to create bridges to meet the other, where Prince Abdulkader embodied his religious values and ethical isthmatic behaviors from the level of discourse to practice. Moreover, the Prince's sacred humanity moved from local to global in the equitable achievement of justice and the removal of injustices for all prisoners or vulnerable persons in need. This was reflected in the statement during his Emirate and his fight against French colonialism in a reform between tribes to unite them, resolve the conflict and fraternize them. Amir Arafaniya Samiya succeeded in tackling Damascus' sectarianism and sectarianism and protecting Christians. This was only increased by universal respect and appreciation.
Keywords: Prince Abdul Kader - Civilization - Values - awareness - religion

مقدمة:

إن تباعد الرؤى والاختلافات الجيو سياسية والصراعات الإثنودينية والتصدعات الاجتماعية والفروقات الطائفية لم تكن إلا سببا عالميا في عدم تحقيق الأمن والسلام العالمي الذي يجمع شمل الإنسانية جمعاء و الذي أصبح حلما و تحت مسمى آخر مشروع الإنسان الكوني مستحيل المنال، أين يصعب تحقيقه مع ما نشاهده من حدة الصراعات والحروب.

لهذا ما أوجدنا أن نساهم ولو بشكل بسيط في إحياء نماذج لشخصيات تاريخية أثرت بالنفس والنفيس من أجل إعلاء راية الأخي والتراحم والتآلف مع الآخر المختلف فما بالك حتى مع العدو الغازي ، ولكن ذلك لا يتحقق إلا من منطلق عقيدة توحيدية وتلقين فكري وروحي، مرجعيته الذوق الصوفي والترقي العرفاني وهذا نستخلصه في سيرة الأمير عبد القادر الجزائري وعيا وممارسة، ويتضح هذا بشكل جلي من خلال مواقفه السمحاء وقيم التعايش السلمي الإسلامية التي دعا إليها لتجاوز سلم الخصوصيات العرقية والدينية والقومية والفردية وصولا إلى مفهوم الإنسان الكامل.

وهنا تكمن أهمية البحث في هذا المقال وهي إبراز الممارسات الإنسانية للأمير عبد القادر الجزائري و القيم الأخلاقية الإسلامية الحضارية والتي تجسدت في عدة أحداث ، نهدف إلى رصدها وأثرها في الوعي الحضاري ، وهذا بموجب منهج يجمع بين استنباط مادة البحث في كل من المصادر التاريخية والحضارية ، وبين تحليلها ، ليقدم تصورا متكاملا للأسس الحضارية والقيم الدينية الصوفية ، في ضوء المنظومة الفكرية للأمير عبد القادر.

فماهي أبرز المواقف السلمية والشواهد التاريخية للأمير عبد القادر التي أظهر من خلالها سماحة ونبل فكره الإنساني والحضاري ؟

1- الأمير: الوعي قبل السعي.

يؤسس الأمير للأنسنة القائمة على النزعة الإنسانية ، واحترام الإنسان الكوني بعيدا عن هيمنة المعتقد أو العادات والتقاليد والانتماء والهوية، حيث أكد إدريس الجزائري أنّ الأمير كان منشدا لفهم حقيقة الإسلام كدين ينبذ التطرف الملحق به بمقتنا وزورا ذلك لأنه لم يستنبط من الإسلام الحقيقي (التشدد ولا نموذج العنف الذي يراد إلصاقه بالمسلمين كوسيلة شعبية للتخفيف في الدول المتقدمة ، إنما استلهم من مبدإ الإسلام الحقيقي المحبة والأخوة والإنسانية لشق الطريق لتأسيس قانون دولي إنساني جامع

وفعال... ذلك أن فكر وأعمال الأمير يشكّلان دواء للحد من تصاعد اللاتسامح ، تلك الظاهرة المشوّمة لهذه الهويات القتالة. (خليفة بشير ، 1912، ص139).

كما أن الممارسة الأخلاقية في نظر الأمير لن تتسم بأي معنى بدون ملكة المعرفة المتمثلة في قوة العلم ، إذ أن الممارسة الأخلاقية للعمل الصالح تقتضي من صاحبها أن يكون عارفاً بخاصّة ومقصد فعله ، قادراً على التمييز بين الصدق والكذب في الأقوال والحق والباطل في الاعتقادات والقيح والجميل في الأفعال ، مما يؤدي إلى ثمره الحكمة التي تؤدي بدورها إلى تحقيق الإنسان الكامل بتعبير الأمير ، وهذا التماهي بين العلم والعمل له مزاياه من زاوية تأهيل الفرد لكي يكون واعياً بفعله ومسؤولاً عن تبعاته...." ينبغي الإقرار أيضاً بأنّ الفلسفة الأخلاقية للأمير نابعة بالأساس من ثقافته التي اجترحتها من مطالعته وحضوره مجالس العلم وكذا من المراحل التاريخية في نموها وتصاعدها " (ودان بوغوفال 1912، ص141).

2- الأنسنة عند الأمير عبد القادر :

لقد تمكن الأمير عبد القادر أن يحافظ على مبادئه السمحاء وسلوكياته الإنسانية الرحيمة رغم خوضه التاريخي لغمار حرب ضروس مدة 17 سنة ضد أقوى دولة استعمارية فرنسية الاستعمارية ، فالكاريزما والحنكة السياسية والدبلوماسية لشخصه في الأخذ والعطاء مع المحتل لا تنبع إلا من رمزية صوفية وثقافة إسلامية تربي وفق عرفانيتها الأمير القادري ، وهذا مامنحه القوة والصبر والحنكة والفهم في معرفة السبيل الحقيقي لمجابهة العدو وتحقيق العدالة ومبدأ الرأفة والعفة والتسامح وهي ازدواجية نابعة من رقي حضاري وفلسفة أخلاقية ، نفياً لكل تعصب ديني أو مذهبي أو عرقي ، والتي تمكن من ترسيخها وممارستها فعلاً وقولاً احتراماً للإنسان وإيماناً بالتعددية . وهذا ثابت وواضح من خلال المواقف السلمية والشهادات التاريخية لشخصيات عايشة الأمير عبد القادر الجزائري سواء كانت أسيرة أو عدوة أو صديقة وأحبت فيه قيمه الطاهرة والسليمة ، الذي سعى وحاول جاهداً من خلالها لأنسنة الحرب وتبديل مجراها جنوباً لسلم ، لكن ذلك كان بعيد المنال مع كيان استيطاني أبي اللاتسامح وفضل القتل والإجرام ليس ذلك فحسب بل خطط لمحو معالم الثقافة الدينية الإسلامية للمجتمع الجزائري . كل الحقائق التاريخية تشهد على محورية الدعوة بالمعروف والنهي عن المنكر لهذا البطل الاستثنائي الذي مارس التعايش أينما حل.

ويقول في هذه المناسبة عنه الألماني (يوهان كارل بي رنت) الذي أصبح من المقربين له : " إن الأمير عبد القادر جمع بين الدهاء العربي والشجاعة الحربية والطموح ، ولكنه يتسم بالحلم والعدل على قدر ما تسمح به مواقفه وتطلعاته ، وهو يحيا من الوجهة الدينية حياة ورعة متمسكا بالعادات . ويؤكد سلوكه في كل مناسبة مدى تسامحه ، وخلوه التام من الأحكام المسبقة على من يخالفه في الرأي ؛ كان يشعر في نفسه على ما يظهر القدرة على أن يعيد الهلال من غلبة وعظمة ، يعيش عيشة أكثر بساطة وتواضعا من معيشة العربي لا يرتدي أبدا ألبسة مذهبة أو مفضضة " (مختار حساني، 2007، ص19) .

3- الإصلاح بين القبائل:

عندما وصل الأمير عبد القادر إلى ناحية (نهر مينة) تناهى إلى مسامحه أن قتالا نشب بين قبائل البربر، فوصل في الوقت المناسب ، وعقد صلحا بينهم وقعه رؤساؤهم ، نصه كما يأتي : قد أبرمنا بحول الله وقوته ، الصلح المبرم بين أولاد الأكراد وقبيلة أولاد شريف ، وقبائل يسلم وقبائل الشرقية ، ومحونا أثر ما كان بينهم من بقايا حمية الجاهلية ، وألزمنا كل فريق منهم بالانضباط وطاعة الأنظمة المرعية في الدولة ، ويرفع كل قضاياهم إلى من وليناه أمرهم ، وجعلنا عقوبات شديدة على من يخالف الأنظمة ، أو ينقص أمر هذه المصالحة . أو يتسبب بإفسادها ، فيكون قد عرض نفسه لسخط الله وغضبه . كان الأمير يؤكد أن الغاية الوحيدة لقبوله هذا المنصب وهذه القيادة هي أمن البلاد واطمئنان الشعب على نفسه وأمواله وأعراضه وتمتعه بحقوقه الدينية (علي محمد صلابي، 2016، ص384).

قام الأمير بحث الناس على العمل المجدي من زرع ورعي وتجارة ، تحسينا لأحوال الرعية ، وسرعان ما عمّ الأمن ، واختفى الشقاق بين القبائل بسبب قيام خلفاء الأمير بحل النزاعات وفقا لشرعية الله ، وتمكن الأمير الشاب خلال (عشرين شهرا) من تاريخ بيعته من بسط سلطته على مناطق واسعة بواسطة الترغيب والترهيب مع رجحان كفة الترغيب ، وكان المواطنون يستجيبون للأمير طواعية اقتناعا منهم بأن حكمه مبني على أحكام الشريعة الإسلامية ، ولم تشذ سوى عشائر الدوائر والزمالة لتعودها منذ عشرات السنين على العيش على استغلال الشعب واكتساب المال من الناس بدون حق (علي محمد صلابي، 2016، ص159) ، مستغلين التفويض الذي منحه لهم الحاكم في عهد الأتراك.

4- موت الأسرى وموقف الأمير من ذلك:

"علم الأمير عبد القادر لدى وصوله بقتل الأسرى الفرنسيين الذين أسرو في موقعي الغزوات وعين تموشنت وكان عددهم (177) ، فأسف لذلك ووبخ خليفته الذي نفذ القتل في غيابه دون مشورته ، وكان الأمير مشهودا له بالمعاملة الطيبة للأسرى وفق أحكام الدين الإسلامي ، وأمر بإطلاق عشرة ضباط فرنسيين أسرى وأرسل معهم رسالة إلى ملك فرنسا قال فيها : "لقد شاع في غيابي أن الفرنسيين عازمون على تحرير أسراهم بالقوة من أيدي العرب ، ثم فشأ بين الناس أن سلطان مراکش عازم على إنقاذهم من خليفتنا رغما عنه ، فكان هذا من سوء سلوك نوابكم سببا لما وقع بالأسرى من غير إذن منا ولا علم لنا والآن قد أطلقنا سراح عشرة ضباط مع الرئيس كورلي ديكو فري وهم يعلمون بما أجريناه"(علي محمد صلاحي، 2016، ص251).

شهد الكثير من الضباط والجنود الذين كانوا أسرى عند الأمير عبد القادر عن فترة أسره واحتوت كتاباتهم على حقائق تاريخية دلت على حسن ورقّي المعاملة المستمدة من الشريعة الإسلامية التي أمرت بذلك ، ففي إحدى الأيام كان من الأسرى نساء ، فأمرت والدّة الأمير بأن تكون إقامتهن في خيم بجانب خيمتها ، وأن يحرسن رجال من ذوي الشهامة والعفة وأمرت بالاعتناء بهنّ حتى لم تنسأهن من قهوة الصباح.

فقد اشترط الأمير على جيشه ألا يقتل الصبيان والنساء والضعفاء وأهل الصنائع والمطيعين وكذا القسيسين والرهبان. بل ينبغي أن تسد لهم الحاجة بإعطائهم ما يكفيهم وعشيرتهم من اللباس والمعيش ، كما لا يجوز القتل لأخذ أموال العدو ، ولا يجوز القتل غضبا أو غيضا . بل أكثر من ذلك (إن الأسير المسلم إذا سرحه العدو وشرط عليه عدم الإغارة ثانيا فعليه الوفاء . وإن قتل المسلم معاهدا فينبغي للأمير المسلمين قتله ولا يجوز العفو عنه) (الأمير عبد القادر، 1989، ص 223).

وحتى في ظل التمكن من العدو ، فإن معاملات المقدرة في نظر الأمير ينبغي أن تبقى قائمة في تصرفات جيشه الذي سماه بالجيش المحمدي الغالب في تعاملاته مع الأسرى والمعاهدين من الأعداء (الذين ينبغي أن تؤمن حياتهم وحتى موتهم في بلاد الإسلام ، فإن الضرورة تقتضي إرسال متاعهم وأموالهم لورثتهم وفي ظل غياب الورثة يرسل المال لبلادهم ولا حق للمسلمين فيه

كما وجدنا الأمير يمارس القانون الدولي العام من خلال الكثير من النقاط أهمها :

- احترام الأسرى ، وهذا ما أوصى به جيشه وشرطيته عندما يسقط أسير حرب بينهم
- مجاهدة التعذيب ومنعه ، وهذا مادعى الأمير رجاله ويظهر ذلك في كثير من رسائله .
- احترام المعاهدات والاتفاقيات الدولية ، ويظهر ذلك من خلال بنود وثيقة دي ميشال وتافنة... (محمد الشريف سحلي، 2008، ص55) .

نجد في كتب التاريخ وثائق تعبر عن شهادات بعض الأسرى الفرنسيين ، منها مثلاً شهادة الكابتن (موريزو) الذي تكلم عن حادث أسره فقال : " بعد ساعات فتحت عيني فوجدت نفسي في معسكر سيدي مبارك بن غلال . ولم أكد أصدق ما حصل لي ، إذ كنت ما أزال أحتفظ برتبتي وأيضاً بوسام الشرف ، لم ينتزع مني شيء ، وشعرت أنني في مأمن داخل الخيمة ممدوداً على فراش نظيف وإلى جانبي جرة ماء وكأس من شراب الليمون"(الأميرة بديعة الحسني الجزائري ، 2008 ، ص 62) .

والشهادة الثانية من ضابط آخر يحمل نفس الرتبة يسمى شميتر قال : "إنّ والدة الأمير كانت تأمر بوضع خيم الأسرى من النساء إلى جانب خيمتها في الزمالة ، وكانت تشرف على الاعتناء وتأمر لهنّ حتى بقهوة الصباح والحليب وكل ما يرغبن به . وذات مرة صادفتها بعد أسري في معركة سيدي إبراهيم ، فقالت لي : ما لذي جاء بكم إلى بلادنا ؟ لقد كنا ننعّم بالسعادة والهدوء والرخاء ثم جئتم تثيرون أعاصير الحرب والويلات والدمار ، عودوا إلى بلادكم وأهليكم . وأرجوا من الله الغفران لكم ؟ (الأميرة بديعة الحسني الجزائري ، 2008 ، ص 63)

وفي سيدي خليفة وقع تبادل الأسرى الشهير في 21 ماي 1841 ، وكانت هذه الحادثة ثمرة خالدة لإتصال وجهود قلبين كريمين . وكان الأسقف قد احتفظ ببعض اليتامى احتجاجاً على ذلك ، ولكنه بدلاً من ذلك تلقى من الأمير عبد القادر هدية ووصية جاء فيها : "إنني أرسل إليك قطيعاً من الماعز مع جديانها التي ماتزال في الرضاعة . وبذلك ستكون قادراً لفترة طويلة على إطعام اليتامى الصغار الذين تبنيتهم والذين فقدوا أمهاتهم . وأرجو أن تعذرني على هذه الهدية لأنها متواضعة جداً وأقل مما يجب" (شارلز هنري تشرشل ، 2009 ، ص261).

وذات يوم كان أسيراً من الأسرى يعرب أمامه عن إرادته البقاء على دين آبائه. شاطره الأمير الرأي بحفاوة مضيفاً: إني لأعجب الشجاعة في العقيدة أكثر من الشجاعة في الحرب.

وفي مناسبة أخرى مثل أمامه جنديان أعربا عن نيتهما في الدخول إلى الإسلام. فسّر الأمير للأمر ولكنه أصر على معرفة دواعيهما مبينا لهما ما سيترتب عن قرارهما هذا . فقد كان حريصا على أن يكون الانضمام حرا ورضينا : إن كان قراركما هذا عن حسن نية فيها ونعمت ، وإن كان سببه الخوف المبالغ فيه فإن الأمر غير ذلك ، ولا تفعلاه . ولا تخشيا على أنفسكما فلن يمسكما أحد بسوء فأنتما مسيحيان وستظلان كذلك. بل فكرا فيما قد يصيبكما إن عدتما إلى الفرنسيين أو وقعتما في أيديهم بعد أن تنكرتما لدينكما. ألا تحاسبان كفارين مجرمين ؟ ولم يكن الأمير يكتفي باحترام القناعات الدينية للأسرى . كان يأمل في أن يسهل لهم ممارسة طقوسهم وتأمين حضور مرشد كاثوليكي يبعث السكينة في قلوبهم .

ففي 1841 ، خلال تبادل للأسرى أوقفته السلطات الفرنسية ، طلب من الأسقف ديبش أن يرسل إليه أحد القساوسة : لن ينقصه شيء ، وسأحرص على أن يبجل ويحترم من قبل الجميع في كنفنا كما يليق بمقام رجل في خدمة الله وتمثيلكم . سيؤدي الصلوات يوميا مع الأسرى وسيواسيهم ، كما يمكنه أن يرأسل ذوبهم وبهذه الوسيلة يمكنهم من الحصول على المال والثياب والكتب وبكلمة واحدة كل ما يرغبون فيه والذي من شأنه أن يخفف من وطأة أسرهم . غير أنه بمجرد وصوله ولاحر مرة سيتعهد بأن لا يكشف في رسائله معسكراتنا وعملياتنا الحربية" (محمد الشريف سحلي ، 2008 ، ص 101).

وفي موقف نبيل وشهم آخر من طرف الأمير أنه وافق على " تقليد وسام شرف لأسير فرنسي أرسل له من قائده الفرنسي، وذلك في جو احتفالي خاص أدخل الفرحه إلى قلب الأسير الذي لم يكذ يصدق ما رأى. وقد نوه غير واحد من الكتاب الفرنسيين ومؤرخيهم برحمة الأمير وكرمه تجاه الأسرى وأنه كان بالنسبة لهم في صورة (عدو كريم الأخلاق) كل من كان أسيرا عنده من الفرنسيين أثني عليه وحسبك أنه كان يأمر بإعفائهم من الخدمة يوم الأحد باعتباره يوم عطلة للمسيحيين . قلت أن الفرنسيين كانوا محرجين إزاء المعاملة الإنسانية لأسراهم لدى الأمير ، بدليل أن أحد القادة العسكريين الفرنسيين قال مرة : ينبغي لنا أن نخفي هذا الأمر ونكتمه عن العسكر ، لأنهم إن علموا به لا يتأتى لنا أن نحارب عبد القادر بالترتيب المناسب(علي محمد صلابي، 2016، ص254).

5-موقف الأمير من الفتنة الطائفية بدمشق:

بلاد الشام تتميز بتنوع الطوائف واختلاف المذاهب وتباين العقائد ، ففيها الأغلبية المسلمة السنية وفيها الشيعة والمسيحية التابعة لكنيسة روما من اليونان الأرثوذكس والأرمن والجورجيون واليعقوبيون والبروتستانت ثم الأقلية اليهودية ، وقد كان للموارنة الكاثوليك وضع خاص لارتباطهم بكنييسة روما مباشرة ولصلاحتهم المتميزة مع دولة فرنسا ، والعدد الأكبر من هذه الطوائف يتركز في جبل لبنان . وفي فترة حكم علي للشام في الأربعينيات من القرن التاسع عشر ، قام ابنه إبراهيم باشا باعتماد أسلوب إداري يقوم على مبدأ المساواة بين الطوائف في المعاملات ، الأمر الذي أحل بالتوازن المتوارث ، وأضر بالامتيازات والمكتسبات الاقتصادية والاجتماعية التي حققتها بعض الفئات على حساب الأخرى ، فكان ذلك تمهيدا لتعاون بعض الطوائف مع الدول الأوروبية مباشرة ، والتزود منها بالسلاح وبالمال ، دون اعتبار لمصالح الدولة العثمانية وسيادتها ، فسمح للإنجليز بالاتصال بطائفة الدروز ، بينما ساندت فرنسا الطائفية المارونية وشجعتها على الوقوف ضدّ من يمس بمصالحها، ممّا هيأ الظروف لبداية حدوث الاضطرابات بعد ذلك بين طائفتي الدروز والموارنة منذ عام 1845م.

وبعد أن أصدر السلطان عبد المجيد عام (1856) مراسيم عرفت بالخط المهابيني الذي أقر نهائيا المساواة بين أفراد مختلف الملل والطوائف والأديان ، مع المحافظة على أحوالهم الشخصية ، أصبحت الأوضاع في مجمل بلاد الشام وخاصة مع حلول عام (1857) تنذر بانفجار خطير، بدأت شرارته بعدما استولى فلاحون موارنة في شمال جبل لبنان على أراضي الإقطاعيين ، وامتنع موارنة الجنوب عن دفع الإيجارات إلى ملاك من الدروز . (محمد علي الصلاحي، 2016، ص315) .

وفي سنة ستين وثمانمائة وألف (1860م) ، تعدى جماعة من الدروز على رئيس دير عميق، وهو من القسيسين القائمين برهبة الروم الكاثوليك ، فقتلوه . فاهتاج لذلك غضب النصارى وشكوا أمرهم إلى الحكومة وإلى القناصل ، ثم تعدا النصارى على درزي في خان الشياح ، فقتلوه وثار الفتنة بين الطرفين واعتدى الدروز على النصراني في قرية عيناب ، واشتد ضرامها وسدّت الطرق وعمّ الخوف سائر الجهات . وتناذر الدروز من لبنان وحوارن ووادي التيم وأحواز دمشق ، وتجمهروا وجمع النصارى جيوشهم ، ووقع المصاف واضطربت نار الحرب واتصلت أيامها، فاننصر الدروز على قلة عددهم وأثخنوهم قتلا وجرحا وأحرقوا قراهم وانهبوا أموالهم . وكان الأمير، عندما بلغه خبر استعداد الدروز لقتال النصارى وتجمهرهم

كتب إليهم يحذّرهـم سوء عاقبة أمرهم، من جهة الدولة العلّية ويرشدهم إلى ترك ما عوّلوا عليه . فأفضت الحال إلى ما آل إليه الأمر. (محمد بن عبد القادر الجزائري، 2007 ، ص 138).

وفي تلك الأيام، أخذ الصبيان المسلمين يصوّرون الصليب في الطرقات ويرسمونه على الأوراق ويلقونها في المحلات القذرة. ولما بلغ الأمير ذلك ، علم أن العاقبة وخيمة ، وإذا وقع في دمشق نظير ماوقع في لبنان ، يجعله الإفرنج ، لا محالة ، ذريعة لخراب البلاد . فتوجه إلى الوالي وتكلم معه في ذلك فأجابه : إن ما بلغك محض إرجاف من النصارى وكان هذا من الباشا ، على ما يعتقد ، من إذعان أهل البلد ومايتلقاه من أعيانها . ثم تفاقم الأمر في جبل لبنان ، وتغلّبت طائفة الدروز على النصارى وأحرقوا زحلة ودير القمر وغيرهما من القرى الشهيرة. (محمد بن عبد القادر الجزائري، 2007 ، ص 139).

وفي يوم الإثنين الحادي والعشرين من ذي الحجة سنة ست وسبعين ومائتين وألف (1276هـ) والعاشر من يوليو (تموز) سنة ستين وثمانمائة وألف (1860م)، أخذ شرطي صبيا يلعب بصورة الصليب إلى الحكومة . فأمرت بتعزيه وإهانته في الأسواق . فساقه الشرطي ومزّبه في سوق باب البريد . فرآه أخوه ، فغاب عن إحساسه ورمى بنفسه من دكانه على أخيه ، وقام جيرانه لقيامه وأخذوا الصبي من يد الشرطي . وماج الناس وكثر الصريخ واللغط في أنحاء البلد. وجعلوا السفهاء ينادون في الأزقة والطرقات : هلموا إلى الجهاد . وأخذ الناس يتقاطرون إلى محلة النصارى وينسلون إلى جهاتها ، من كل ناحية ، بلا تأمل في العاقبة ولا روية . ومدوا أيديهما أهلها بالقتل وإلى أموالهم بالنهب وإلى ديارهم بإضرار النار فيها. (محمد بن عبد القادر الجزائري، 2007، ص 140).

لاحظ الأمير أن الأمر قد خرج من أيدي الأعيان الوجهاء ، وكان الأمير قد أعد للأمر عدته وتأهب لكل احتمال معاد ، فجمع كل قادر على حمل السلاح من المهاجرين الجزائريين واشترى لهم السلاح ، وكان قد قام بتدريبتهم على إخماد الحرائق ، وعلى عمليات الإنقاذ الأولى ، وعندما تناهى إلى مسامعه ذات صباح أن الجموع تتجه نحو حي القصاع استدعى فرسانه الأشداء وخرج هو أبناؤه كلهم ، وقاد بنفسه حملة إخماد الفتنة الطائفية ووزع المهمات على رجاله ، من شرفاء الناس وعلماء المسلمين وكبرائهم ، وغيرهم من أبناء دمشق المخلصين لحماية المعتدى عليهم ما استطاع وإخماد الفتنة ، وفتح داره وبذل كامل همته بأمواله ورجاله وسلاحه في خلاص قدر عليه من المهالك ، ومرافقة من كان خارج الميدان إلى حصن الأمان في القلعة التي خصصها الوالي لحمايتهم ، فكان الأمير وأتباعه من سكان الشام يطوفون

على من كان في الميدان في سلامة وأمان ، ويدودون عنهم ليل ونهار ، يحرسون النصارى من الأتقياء والأشرار ، وكان يواسيهم ويهنتهم بالسلامة ويطيّب قلوبهم بالأمن والأمان.(الصلاحي،2016،ص563) وكان الأمير قد أصدر أوامره لحراسة أبنية السفارات الأجنبية في دمشق ، ونقل البعثات والدبلوماسيين إلى دور الأمير في حي العمارة (زقاق النقيب) ، وأشرف بنفسه على عمليات الإنقاذ وإخماد الحرائق ، التي بدأت تشتغل في بعض المنازل في حي القصّاع ، وكان جنود الأمير يقتحمون النيران لإنقاذ السكان ، ونقل الأمهات والأطفال إلى الأديرة ، وكان الأمير يتجول بين الأحياء غير مبال برصاص القناصة والطلقات الطائشة ، وهو على ظهر حصانه يصدر الأوامر حتى بلغ عدد من نقلوا إلى دوره في حي العمارة خمسة عشر ألفا بين رجل وامرأة ، وعندما غصّت الدار بهذا العدد الكبير من السكان نقل بعضهم إلى القلعة . وفي اليوم الثالث من تلك الأحداث الفظيعة قامت الجموع بمهاجمة حي العمارة ، فخرج إليهم الأمير ، وما إن وقعت عليه الأنظار حتى ألقى الله الرعب في قلوب الجموع المهاجمة فعادوا من حيث أتوا، وقبض فرسان الأمير على بعض منهم ، وكم كانت دهشة الأمير كبيرة عندما اكتشف أنّ بينهم عددا من المسيحيين اللبنانيين ، فسأل شابا كان يتقد حماسه هستيرية ، ما لذي جاء به إلى هذه المعركة المشينة ؟ فأجاب بعد نقاش معه : وما السبيل إلى القضاء على هذه الدولة العثمانية سوى جعل الحكم غير مستقر في البلاد وزعزعة أركانه ، إنّ فرنسا تريد الأخذ بيدنا نحو حضارتنا ، وما جنودها في ميناء بيروت سوى رسل لهذه الحضارة. (شارلز هنري تشرشل، 2011، ص363).

واستمرت الفتنة وناها موقدة ، أربعة عشر يوما ، كل ذلك والأمير مشغول بأخذ الوسائل ليتوصل إلى إطفائها ، باذلا جهده في حسم أسبابها . ولم يدخل إلى بيته في أيامها بل كان يجلس على سجادة في دهليزه ، ولا يهجع من الليل إلا قليلا.(محمد بن عبد القادر الجزائري،2007،ص141). ولم يزل الأمير يعاني المشاق إلى أن حضر صاحب الدولة ، فؤاد باشا وزير الخارجية إلى دمشق ، ولأوّل وصوله أجرى فيها حكومة عرفية خارجة عن القوانين المعتادة . فقبض على ألوف من أهلها حتى امتلأت بهم السجون. فقتل من ثبت عليه القتل أو قامت عليه البينة بأنه أثار الفتنة أو وافق عليها، ونفى جماعة من الأعيان والعلماء لتقصيرهم عن تدارك الأمر....وبعد أن أتمّ ما اقتضته الحال في دمشق ، توجه إلى بيروت وقبض على أمراء الدروز ومشايخهم واعتقلهم ثم أرسلهم إلى أستانة.(محمد بن عبد القادر الجزائري،2007،ص142)

بعد هذه الأحداث واخماد الفتنة من قبل الأمير عبد القادر ، غطت الدول المسيحية عبد القادر بأرقى أوسمة الاعتراف والإعجاب . فقد انمالت عليه الرسائل والهدايا والأوسمة من كل جهة . فأرسلت إليه فرنسا النطاق الكبير المعروف بوسام الشرف ، وأرسلت إليه روسيا صليب النسر الأبيض الكبير . وأرسلت إليه بروسيا صليب النسر الأسود الكبير ، وأرسلت إليه اليونان صليب المنقذ (المسيح) الكبير ، وأرسلت إليه تركيا الوسام المجيدي من الدرجة الأولى (شارلز ، 2011 ، ص363).

وأما إنكلترا فقد أرسلت إليه بندقية ذات فوهتين مرصعة بالذهب ترصيعا جميلا ، كما أرسلت إليه أمريكا بندقيتين مرصعتين بالذهب أيضا ، وأرسلت إليه منظمة (الفرماسون) في فرنسا نجما عظيما . وكانت جميع هذه الأوسمة والهدايا مرفقة برسائل الشكر . ولكن سلوك عبد القادر ، الذي قام به وسط المناظر الفظيعة التي جرت أثناء جور التعصب التركي لم يثر موجة من الإعجاب العميق والثناء الحسن والفرحة العامة في العالم المسيحي فقط . ففي العالم الإسلامي أيضا ظهر شعور عميق من الاستغراب والاستنكار ضد العمل الانتقامي والحماقة العمياء ، والحقد الدموي المعادي للمسيحيين....

إن هذا الشعور قد وجد أفصح تعبير عنه في شخص بطل القوقاز الشهير . فقد كتب شمويل ، من منفاه في روسيا ، الرسالة التالية إلى عبد القادر: " إلى الذي أصبح معروف لدى جميع الطبقات العليا والدنيا ، والذي يقف متميزا عن جميع الرجال بميزاته العديدة ، والذي أطفأ نار الفتنة قبل أن تمتد ألسنتها ، والذي اجتث شجرة العداوة التي لم تكن ثمرتها في الواقع سوى رأس الشيطان ، الحمد لله الذي كسا خادمه بالقوة والإيمان ونعني بذلك الصديق المخلص الحقيقي، عبد القادر العادل . السلام عليكم وجعل الله شجرة الشرف والجدارة دائما مثمرة في شخصكم . (شارلز، 2011، ص364).

كما شاء القدر للأمير أن يكون ممن ساهموا في تنشيط أهم المشاريع الاقتصادية في عصره ، نقصد حفر قناة السويس ذلك الإنجاز البرزخي العالمي الذي قدّر للأمير أن يكون من فواعل التشجيع عليه ومن رافق أعمال إنجازها ، ومن حضروا فرحة تدشينه . بل إن الأمير سيجد نفسه يقف في عصره موقفا برزخيا عالميا ، بوصفه صوتا سعى وبإخلاص لا شائبة فيه إلى أن يقرب الشقة ويصل اللحمة بين حضارة المشرق وعقيدته الإسلامية مع حضارة الغرب وعقيدته اليهودية مسيحية. (عشراقي سليمان، 2011، ص84).

خاتمة:

تفرد الأمير عبد القادر الجزائري بحسن الأخلاق وقوة المعرفة فهو الشريف الحسني عريق النسب عظيم بشأنه النابغ بملكاته عقله ، الفطن و اليقظ بدهائه ، الروحاني المتوهج بدين القلب والذوق العرفاني بتصوفه ، الأمير المحارب الرافع لراية الإسلام بصدق قوله وفعله ، المعتدل بمواقفه ، المستكين المتزن بسماحة أخلاقه مع ذاته ومع غيره ، القائد والسياسي بإنسانيته ، الحاضر بمرجعية القرآن الكريم وسنة نبي الله الكريم محمد الشفيع عليه أفضل صلاة وخير سلام . وبالتالي تمكن الأمير عبد القادر بتوفيق العلي القدير أن يوازن بين كونه رجل دين ودولة في نفس الوقت . رأينا مما سبق مدى تميز وتفرد الأمير وتحليه بالخصال الحميدة والرفيعة التي جسدها في أفعاله ومواقفه السلمية والمتسامحة والرحيمة وعيا وممارسة والتي دعت للتعايش مع الغير، انطلاقا من خلفية صوفية وقيم إسلامية المنبع والفطرة شب عليها ودعا بها عبر مساراته التاريخية حتى آخر نفس له.

قائمة المراجع:

- 1- الأمير عبد القادر الجزائري، 1989، المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد. الجزائر : دار الطاسيلي للنشر والتوزيع، الجزائر.
- 2- الأميرة بديعة الحسني الجزائري، 2008، الأمير عبد القادر (حقائق ووثائق بين الحقيقة والتحريف)، ط2، دار المعرفة، دمشق.
- 3- خليفه بشير، 1912، الفلسفة الأخلاقية عند الأمير عبد القادر، ط1، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر ، الجزائر.
- 4- شارلز هنري تشرشل ، 2009، حياة الأمير عبد القادر، أبو قاسم سعد الله ، ط1، دار الرائد ، عالم المعرفة للنشر والتوزيع ، الجزائر .
- 5- عشراي سليمان، 2011، الأمير عبد القادر في بلاد المشرق ، ط1 ، دار القدس للنشر والتوزيع ، الجزائر .
- 6- علي محمد محمد الصّلاحي ، 2016، الأمير عبد القادر الجزائري (قائد رباني ومجاهد إسلامي) ط2، دار العزة والكرامة للكتاب ، الجزائر.

- 7- محمد الشريف سحلي ، 2008، الأمير عبد القادر " فارس الأمير " ، ترجمة محمد يحياتن ، منشورات ANEP ، الجزائر .
- 8- محمد بن عبد القادر الجزائري، 2007، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر ، شرح وتعليق ممدوح حقي ، دار الوعي ، الجزائر .
- 9- مختار حساني ، 2007، ثورة الأمير عبد القادر " من خلال ثلاثة مخطوطات " ، بط، دار الحكمة ، الجزائر .
- 10- ودان بوغوفالة ، 1912، الأمير عبد القادر "عبقريّة في الزمان والمكان " ، منشورات مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية ، ط1، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر ، الجزائر .